# السكيرة

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان
بقلم الأديب كمال الحريري

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم « ما كوار » تحمل المعلم « شيكو » خمار « دى به فيل » وهو رجل فى العقد الرابع خشن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين سمين، في وجهه سيما الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها بخشبة معترضة ومشى إلى ساحة الدار

كانت الأم « ما كوار » تمتلك أرضاً تجاور مزرعته ، طالما تشوفت نفسه إلى ابتياعها منها ، وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من العجوز عنيد وتصلب شديد. وكانت تقول:

— إنى ولدت فى هذه الأرض ، وستجننى تربتها ...

فى هذا الصباح ألفى العجوز ، وهى درردبيس فى الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها معنية بتقشير « البطاطس » كانت منكمشة الجلد ، جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها فى ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها فى دعابة ثم قال :

— وصحتك أيتها الأم ، هل هى جيدة وأبداً جيدة؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هانئاً راضياً

— جدُّ مليح . ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها فى حذق ومهارة ، بين أصابع يابسة عقداء معروقة ، تشبه أرجل السراطين ، وفى يدها اليمنى سكين عتيقة منثلمة لا تكاد تقطع الجبن

وحين فرغت من البطاطس ، وأضحت الماعة صفراء ، ألقت بها فى قدر مملوءة ماء . فاذا دجيجات وأفراخ تسعى إليها ناقة مقوقئة ، ثم تختلس ما تبقى فى حجرها من قشور البطاطس ، وتتراكض في خبث عنها وفى منقار كل منها ما غنمت من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر فى سأم وضيق وفى نفسه أمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد فى انتزاعه ، وأخيراً وفق فقال :

— ألا خبريني أيتها الأم « ما كوار »

— وما عساى مخبرتك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيعى مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم « شيكو » فلم إقلاقى به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل ؟

— ولكنى يا سيدتى وجدت حلاً للمسألة إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقة غير أسف ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيعيننى أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت فى قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضاً ؟

فشغلت العجوز عن تقشير البطاطس ، وراحت ترمى الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلقين أجمدين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن ترضى بهذه الصفقة تتسلمى فى منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكا أحملها إليك فى

عربتى . أتدرين قولى؟ أتفقهين حديثى؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل بك حال، ولا تتغير حياة، فستظلين فى حقلك آمنة السرب رافهة العيش لا يدينك أحد ولا تدينين لأحد ، ولا تمملين أمراً ، ولا تنصبين نفسك لعمل . إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكا ، مطلع كل شهر ، عملاً شاقاً يكد وينصب .
قال هـذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشراً وفى وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة ... والعجوز تلحظه حذرة متيقظة . وقد كبر فى وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة . على أنها سألته فى خبث :
إنك لتؤكد لى أن المزرعة ستظل فى حوزتى فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك ؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوى عليه غمزة العجوز
لا أثقـل عليك يا سيدتى فى شأن الأرض ، فلسوف تغلين خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله فى حياتك العزيزة . غير أنى أرجوك أن تكتبي لى حقاً شرعياً ، يخولني حق امتلا كها بعد عمرك الطويل إن شاء الله . ولبثت المرأة وهى تصغى لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراماً ولا نقضاً ، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضاً ، وأخيراً قالت :
إنه لا يسعنى رفض اقتراحك ، فلو أنظرتنى أسبوعاً آخر أتبصر أمرى وأروى رأيى . فأطاع المعلم « شيكو » ثم غادر الأم فرحاً فخوراً ، كأنه الملك الجبار ، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار ...
أما الأم « ماكوار » فقد أمضت أيامها ساهمة حالمة ، لا يستقر جنبها على مضجع ، ولا يزور جفنها سنة من نوم . ثم استشرت بها حيا التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام ، لولا

أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة، التى توشك أن تتدحرج على حجرها مطلع كل شهر ، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الجامدة وأرادت أن تضع لترددها حداً ، فمضت إلى المسجل الشرعى تنفض له جملة حالها وتستنصحه فى أمرها . فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضى بحل المعلم « شيكو » ، ولكنه اشترط عليها لذلك، أن يضاعف لهـا الراتب فيجعله ثلثمائة بدلاً من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوى فى أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك . ثم قال لها فى أضعاف حديثه :
— لئن عمرت خمسة عشر عاماً ، فلن ترزئى صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك . . .
فاستفاقت بجسم العجـوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنـكا التى سوف تحظى بها رأس كل شهر . ولكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر ، تنوشها الهواجس ، وتتوزعها الوساوس ؛ فهى تتوقع حيناً مفـاجأة مفجعة وآناً مكيدة مستورة ، لا تبصرها ولكنها تحسها . ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل ، وتواجه المقترح من كل جهة . ثم ، ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأى .
وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيهـا ويستعلم غرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائى ، بلزوم رفع مرتبها الشهرى ، وحين رأت هزة الاخفاق تركب أوصاله ، ونار الغيظ تحتدم فى عينيه ، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه ، أظهرته على قاعة السنين التى يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت :
— إنى من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريرى إلا مستندة إلى الأذرع ، أو محمولة على الظهور
ومهما يعتد بى خيط الهرم ، فانه كخيط العنكبوت

وشيك الانبتات سريع الانقطاع . وهل بعد الثلاثة والسبعين عاماً التى توقر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر ؟ وقاطعها المعلم مغيظاً فقال :

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتى أن تصطنعى العجز وتتظاهرى بانقطاع المنة . ثقى أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة فى أقل تقدير، وإنى أراهن على أنك أنت التى ستتولين دفنى ، فا هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد، وجهد المعلم «شيكو» الجهد كله ليقنع العجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل. وحين لم يجد مندوحة من إجابتهـا رضى مكرهاً بدفع الثلاثمائة فرنك ... وغبرت سنين ثلاث وصاحبتنا العجوز كالسروة المتيقة لا يزيدها الزمن إلا صلابة وجلداً على الأيام ، حتى يئس المعلم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد ، وأن صفقته كانت هى الخاسرة المغبونة ، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الافلاس إن ظلت معاهدة الصداقة والود بين العجوز وعزرائيل متينة العرى

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة ، أوالاستفسار عن موعد الحصاد ، فكانت تستقبله فى خبث ، وفى نفسها الشماتة والتشفى وفى معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلى الذى لعبته على مسرح بلاهته وغفلته. فكان يرتد سريعاً إلى عربته ويجمجم:

— وإذن فليس فى نية هذه البهيمة أن تموت؟ لم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاكا . فكانت تمر به ساعات يود فيهـا لو أهوى على عنق العجوز نخنقه ، وروحها فأزهقه ، مما فى نفسه منها من الغيظ والحنق والموجدة ، وظل زمناً يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طلعة العجوز المشؤومة ، وأخيراً ظفر بما يرجو فغدا عليها يوماً يطفر من البشر والسعادة ، ويصفق بيديه من الفرح والمرح ، وبعد أن ناقلها برهة حديث المجاملة والود قال :

— ألا قولى لى أيتها الأم ماكاوار فيم امتناعك عن زيارة منزلى حين مرورك على حانة «إيدى فيل»؟ إن الحديث فيه ليلذ ويمتع ، وأنا هناك ويا للأسف مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من القريب ، لا يؤنس وحشتى زائر ، ولا يمر عليّ عابر. فزوربنى إن تكرمت وكلى ماطاب لك فلست مرزئك مالاً ولا مكافئك دفع طعام أو شراب . زوربنى فى زيارتك تشيع البهجة فى قلبى وينتشر السرور فى دارى

وفى الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ، فراحت إليه فى عربتها ، والشمس لم تغادر خدرها الوردى ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة فى الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود

لم يكد يصدق عينيه المعلم شيكو ، وراح ينشط فى خدمتها ويجتهد فى مرضاتها ، كأنه أمام سيدة نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفتن فى تقديم فاخر الأطعمة والآكال وغريض اللحم ، من الطير المبهر ، والدجاج المحمر ، ولحم الخنزير المشوى ، وأصناف من الخضار والفاكهة والتوابل ، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها العجوز التى اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ، أو قطع الخبز المغموسة بالزبدة ، وألح الرجـل وعزم عليها . ولـكنها لم تأكل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت عن تناولها. وأخيراً قال لها وهو يناولها قدحاً من « الـكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القدح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أقول لا . فرجت

أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . احملى لنا كل فاخر ممتق من الـكونياك . وظهرت الخادمة تضم إلى صـدرها زجاجة طويلة ممشوقه ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر . فتناولهـا المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين، ثم عاطى العجوز أحدهما. قائلا:

— إنه لـكنياك لذيذ شهير ، أفلا تتذوقينه ياسيدتي ؟

فتناولته الأم « ما كاوار » شا كرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات ، كي تطيل مدة نشوتها وانبساطها . وما إن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً . فأعرضت عنه أولاً ثم أكرهها المضيف بالقول اللطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة . وكان عازماً على إردافه بثالث ورابع لولا أن عالنته برفضها وامتناعها .

— ولكن هـذا ياسيدتى ليس خمراً إن هو إلا حليب مصفى ، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن يتمتعنى السكر أو تذهب بوقارى النشوة ، لا يكاد يستقر فى الجوف كالسكر المذاب حتى يتبخر فى الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس كمثله شيء لصحة الجسم وابتعاث النشاط . فدعا ذلك العجوز إلى أن اجترعت نصف الـكأس الثالثة، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شعرت بفعل السكر بأطرافها ، وتلماب الخمر بأعطافها . فأهرعت إلى عربتها ومضت ... وغـدا عليها صاحبنا فى عربته المعروفة ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة برميلا صغيراً ، فيه خمر الأمس ، ثم جلسا يعيدان سيرة البارحة ، ولما استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، غادرها المعلم قائلا :

— ما أرانى بحاجة لأقول لك إن الخمر التى أبقيتها لك تـكفيك مدة. فاذا فرغت منها فعندى لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به ولا أضن . وكلما ألححت فى الطلب ألح علىّ السرور وطبت نفساً ...

وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب معنية بتقطيع الخبز الذى تمده للحساء ، فاقترب منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، فنفحته منها رائحة «الكحول» وملأت خياشيمه . هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين لى قدحاً من الكونياك ... ؟

وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما نخب صاحبه ... ولم يطل الأمر بالأم « ما كاوار » حتى شاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخلية لنفسها . وفى الحق كان الجيران يلفونهـا إما مستلقية أمام مطبخها وساحة دارها لا تعى، أو منطرحة فى الطرق والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثة لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يعد المعلم شيكو يتردد إلى بيتها فكان يقول للجيرة راثياً :

— إنه لما يبتعث الأسى أن تدمن هذه العجوز الشراب وهى فى أرذل العمر ، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر !

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقيب سكرة انكليزية أبلت فيها البلاء الحسن ...

وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك فكان يقول :

— لولم تتلف هذه العجوز البلهاء صحتها بسموم الخمر لعاشت عشر سنين أخر !

(حلب) كمال الحريرى